اليوبيل المئوي الرابع للجامعة البابوية الغريغورية

١٥٥٣-١٩٥٣

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

هناك مؤسسات لا تبرح على مرّ القرون تسطع بالفكر وتمسك الانسان عن التفرط وتصدح مدوّية بالقيم الروحية وباهميتها واستمرارها لتحيي معها انها تسرّي شتى ضروب بؤس الدهور ودهورة بعض العقليات التي تعتقد انه بتدورها العيش بمعزل بعيدة عن الخير والشرّ .

وتشتمل هذه المؤسسات الكثيرة على ذوي حياة تذيب نفسها في التنقيب عن الحقيقة وابلاغها لغيرها ، على انه من الدواعي المرغبة في الاستطلاع رؤية وجوه هؤلاء العلماء. وضاحة نضرة صافية تلقي في الذهن ان ذويها يعيشون في عالم ثانٍ مع كونهم يفكرون في هذا العالم ويحاولون اكتشاف المبادئ التي ينبغي لها ان تنظم المجتمع في سيره الى الامام وفي تقدمه .

ويخف بهذه المؤسسات سلام مستفيض مع انه ربما اشتدت فيه الحروب الفكرية اشتداداً كبيراً ولكنها لن تتحول ابداً الى صراع اخوي يفتك فيه الشقيق بشقيقه . اجل انه السلام الذي يخيّم عليهم فهم يحاولون الاستزادة من العلم ويكافحون لا في سبيل الغلبة بل يكافحون ليشركوا غيرهم بوجهات نظرهم لانهم يعتقدون انهم قابضون على الحقيقة . اجل انهم مناضلون متحمسون ولكنهم يخضعون لحقيقة تسيطر على جميعهم . اما رجال العلم فكأنهم ما برحوا يعيشون بعقلية الاطفال، هذه العقلية التي تكوّن جذلهم وعظمتهم .

ومن بين هذه المؤسسات مؤسسة ذات شهرة عالمية : الا وهي الجامعة البابوية الغريغورية التي احتفلت في شهر تشرين الاول الماضي بيوبيل تأسيسها المئوي الرابع . ولقد اسسها القديس اغناطيوس دي لويولا في رومة سنة ١٥٥١ ولم تتخذ لقب جامعة الا سنة ١٥٥٣ اي عندما شرعت تدرّس اللاهوت . وكانت وضيعة في سنيها الاولى ومع ذلك كان لا بدّ لها من ان تبدأ وان تفكر في الدفاع عن الكنيسة التي هاجمتها الانشقاقات الداخلية والخارجية

ولا سيما البروتستانتية التي كانت تحفر لها الاحافير وتفصل عنها اعضاء كثيرين ومناطق برمتها ، وتلك البروتستانتية التي زعمت انها المعقل الوحيد للعلم الحقيقي.

ولقد اسس اغناطيوس المدرسة الرومانية بما قدمه له فرنسيس دي بورجيا ، — وكان اذ ذاك مارًّا برومة وقد ينخرط يوماً في الرهبانية اليسوعية ويصبح رئيساً عاماً لها — وبما اعطاه اياه البابا يوليوس الثالث . وكان على هذه المدرسة ، بحسب فكرة اغناطيوس ، ان تستخدم لتثقيف ابنائها وجميع الذين كانوا يتأهبون للدراسات العليا ولمراكز حكومة الكنيسة الرئيسية .

وكانت هذه المدرسة في عهودها الاولى حقيرة وبمنزل فقير على اقدام الكابيتول ولكنها بعد سنتين ضاقت عن استيعاب الطلاب الذين كانوا يؤمونها بكثرة من جميع الامم مما اضطر اصحابها الى ان ينقلوها الى قرب كنيسة السيدة « supra Minervam » وعلى اثر كارثة سجت بها العناية الالهية انتقلت المدرسة الرومانية الى مكان آخر وذلك سنة ١٥٥٩ . واتفق ان احدث فيضان نهر التيبر بها اضراراً واذ استشعر البابا بيوس الرابع عمق فعلها في جماعة طلابها آثر بنفوذه على اشراف رومة لانشاء دار اخرى بُنيت بجانبها كنيسة اسمها كنيسة سيدة البشارة فكانت من حيث هندسة بنائها ومن حيث رسومها مفخرة من مفاخر اخوة الرهبانية اليسوعية . وفي ذلك المقام نشأت اول اخوية مريمية « Prima Primaria »

وكان لا بد لازدياد عدد الطلاب ولتسنم غريغوريوس الثالث عشر السدة البابوية العليا من ان يغيّرا مقر المدرسة الرومانية . وبصفة كون ذلك البابا صديقاً لليسوعيين ومعجباً باعمالهم في الحقلين المدني والديني اصدر امره بهدم المدرسة الرومانية وباعادة بنائها بحسب فنّ متقن فسمح لها اتساعها بان تقبل عدداً كبيراً من الطلاب .

وفي سنة ١٥٨٣ بعد ان اعيد بناء المدرسة الرومانية كان لا بدّ لها من ان تحمل اسم المحسن الكبير غريغوريوس الثالث عشر وتصبح الجامعة الغريغورية الحقيقية.

وغريغوريوس الخامس عشر الذي رأى ان كنيسة البشارة كانت ضيقة جداً الضيق لاستيعاب عدد الطلاب الكبير الذين كانوا يؤمونها من جميع الاصقاع قرّر ان يهدمها وان يعيد بدلاً منها بناء كنيسة لائقة بالجامعة وجعلها باسم مؤسس

الرهبانية اليسوعية الذي جُعل في مصاف القديسين سنة ١٦٢٢ . وهذه الكنيسة بفسيح ارجائها ورسوم سقفها وجدرانها تشير الى مهارة صانعها العظيمة وبثروتها الوافرة التي تزدان بها مذابحها تعدّ من اجمل كنائس عاصمة المسيحية.

قد كان على الآباء اليسوعيين ان يديروا هذه المدرسة الرومانية طوال ٢٢٠ عاماً قدموا في خلالها خدمات جلّى لمختلف العلوم الاكليريكية ووفقوا توفيقاً عظيماً في خدمة الكنيسة ، وحسبنا ان نشير الى اسمـاء بعض الذين اشتهروا بتدريس اللاهوت والفلسفـة والعلوم والكتاب المقدس كالقديس بلارمينوس والكردينالين دو لوغو (de Lugo) وتولت (Tolet) والآباء سوارز وفاسكيز وكورنيليوس الحجري (Cornelius a Lapide) وكلاڤيوس الملقب باوقليـد زمانه وغيرهم كثيرين . ولن ننسى بوسكوفيتش وبلافيشيني .

وما انفكّ الطلاب يتدفقون بكثرة فبلغ عددهم سنة ١٦٠٠ الفي طالب جاؤوا من المدارس المجرية – الجرمانية ومن المدرسة الاكليريكية الرومانيـة ومن المدارس الانكليزية والايرلندية واليونانية والمارونية والكبرانيكا الخ :

وكان في المدرسة الرومانيـة مختبرات تخوّل الطلاب ان يجروا التجارب بانفسهم وانس فيها الاب كلاڤيوس سنة ١٥٧١ مرصداً كانت له شهرته الكبرى في جميع اوروبة مع المتاحف الغنية جداً التي ادارها الاب كيرشر الطائر الصيت.

وزد على كل هذا فان المدرسة الرومانية كانت تدرّس اللغات القديمـة كالعبرانية واليونانية واللاتينية والسريانية وقد اضيف اليها معهد للثقافة الدينية للعلمانيين امّه كثيرون من كبريات شخصيات المدينة الخالدة . واذا ما استحسنا لنفسنا ان نذكر من بين طلاب هذه الجامعة الغريغورية اشدّهم نبوغاً فاننا نذكر الذين طوّبتهم الكنيسة وهم القديس لويس غونزاغـا وجان بركمس وروبر بيلارمينوس وكميل دي ليليس (Camille de Lellis) وليوناد دي بورت موريس (Léonard de Port - Maurice) . ودرس في هذه الجامعـة باباوات عظام كغريغوريوس الخامس عشر واوربانوس الثامن واينوشنسيوس العاشر وكليمنضوس التاسع وكليمنضوس العاشر واينوشنسيوس الثاني عشر وكليمنضوس الحادي عشر واينوشنسيوس الثالث عشر وكليمنضوس الثاني عشر ولاوون الثالث عشر

وبندكتوس الخامس عشر وبيوس الحادي عشر وبيوس الثاني عشر الممالك سعيداً. وإننا لنستميح انفسنا الحق بان نشير الى جميع طلاب المدرسة المارونية المشهورين الذين داوموا على الجامعة الغريغورية وكان لهم بعدئذٍ شهرة تعليمية عظمى في اوروبة كالسماعنة والخصارنة وعميرة والشدراوي والحاقلاني ومبارك والباني وغيرهم.

c

لقد حالف التوفيق الجامعة الغريغورية حتى سنة ١٧٧٣ — وهي السنة التي أُلغيت فيها الرهبانية اليسوعية — وقد سلّمها الحبر الاعظم الكهنة روما العلمانيين فاداروها تحت اشراف لجنة من الكرادلة حتى عهد البابا لاوون الثاني عشر الذي اصدر براءته (Cum multa) وامر فيها بارجاع الجامعة الى الآباء اليسوعيين وذلك سنة ١٨٢٤ فكان عميدها الذي عُيّن لها الاب تبارلي دازغليو (Taparelli d'Azeglio) الشهير.

وعقب حوادث سنة ١٨٧٠ افلت من يد الجامعة الصرح الجميل الذي كانت فيه وانتقل معهدا الفلسفة واللاهوت الى قصر بورمايو (Borromaeo) واوقفت الدروس اللاتينية والادبية بامر من الملك. اما الذين جعلوا شهرة للجامعة في ذلك العهد فكانوا: بيرونه (Perrone) وغوري (Gury) وفرنزلين (Franzelin) ومازيلا (Mazella) وبالماري (Palmieri) وسكي (Secchi) وكلوتجن (Kleutgen) واورابورو (Urraburu) وفرنز (Wernz) وبيّوت (Billot) ودي لاتايل (de la Taille) ودربيني (d'Herbigny) ودي غيبرت (de Guibert) وفرمرش (Vermeersch) وفروبيس (Froebes) وغيرهم. وكانت العلوم على تقدّم مستمر مع اساتذة كهؤلاء. وكان عدد الطلاب يزداد يوماً عن يوم.

والحق البابا بيوس التاسع سنة ١٨٧٠ معهداً للحق القانوني بالجامعة واجريت توسيعات كثيرة فيها في عهد خلفائه.

واصدرت الجامعة في حزيران سنة ١٩٢٩ المجلة الفلسفية اللاهوتية الغريغوريانوم (Gregorianum). وخوّل مجمع الدروس المقدّس سنة ١٩٢٢ الجامعة اعطاء شهادة (Magister aggregatus) لتثبت كفاءة الطلاب الذين تابعوا صفوفها بنجاح ويرغبون في الاستزادة من العلوم. وفي سنة ١٩٢٤ ضمّ اليها البابا بيوس الحادي عشر معهد التعليم العالي للادب اللاتيني. واذ ضاقت الامكنة فيها

انشأوا ابنية جديدة قرب (Piazza della Pilotta) ودشنوها سنة ١٩٣٠ وقد اضافوا اليها تدريس التاريخ وعلم الارساليات .

واتسعت في هذه الفترة معاهد دراسة التوراة والاستشراق والثقافة الدينية العليا للعلمانيين. اما في السنوات الاخيرة فقد افتتح فيها معهد الدراسات الاجتماعية. ولا سبيل لاغفال الاشارة الى مكتبتها فهي غنيّة جد الغنى وتشتمل على خمسمئة الف مجلد.

فالجامعة الغريغورية هي الجامعة التي تتكمل فيها اتمّ الدراسات الاكليريكية . فهي جامعة البابا وعميدها هو مدير المجمع المقدس للدروس والمعاهد الاكليريكية . اما رئيسها فيعيّنه الحبر الاعظم .

٥

ولقد تكاثفا تدفق الطلاب على هذه الجامعة مع المجهودات التي بذلتها الرهبانية اليسوعية لتزودها بعدد كبير من الاساتذة الذين يزيدون على مئة استاذ ينتمون الى عشرين أمّة . ويبلغ عدد طلابها سنة ١٩٥٢ – ١٩٥٣ الفين وثلاثمئة واثنين وسبعين طالباً ينتمون الى ٦٠ امّة بينهم ١٢٧١ من الاكليروس العلماني و ١١٠١ من الرهبان .

٥

كان من حقّ هذه الجامعة الغريغورية ان تحتفل بيوبيلها المئوي الرابع احتفالاً لن تندثر ذكراه وذلك من اليوم الثالث عشر الى اليوم العشرين من شهر تشرين الاول الماضي .

وانبا لفكرة جميلة راودتها ان تحشد في مؤتمر علمي للابحاث العلما. الوافدين من مختلف الامم فكان الاحتشاد مساء يوم الثلاثاء قبل افتتاح المؤتمر في رواق الجامعة حول الرئيس والاساتذة وحول رئيس الرهبانية اليسوعية العام للترحيب بالوافدين وتحية الحبر الاعظم – وغداة اليوم الثاني عند الساعة التاسعة صباحاً كان الاجتماع في الكابيتول لتحية محافظ روما السيد ربيكيني (Rebecchini) الذي رحّب بقدوم مندوبي الامم المختلفة الى عاصمة بلاده ليشرّفوا بحضورهم الجامعة البابوية . اما افتتاح المؤتمر الحقيقي فكان عند الساعة العاشرة . ولقد كان من المقرّر ان تكون هناك خمسة اقسام : القسم اللاهوتي والفلسفي والتاريخ الكنسي والحق القانوني والارساليات . فانتشر مندوبو

مختلف الجامعات العلمية والمشتركون بالمؤتمر البالغ عددهم زهاء ٤٠٠٠ شخص في شتى ردهات الجامعة الواسعة . فهنا يعالج الاب برون (Brown) لاهوتي البابا النهج اللاهوتي العلمي وهناك يبحث الاب لويس دي رادماكر (de Radmaeker) خاصة البرهان على وجود الله ويبحث الاب ارنو (P. Arnou) تنزّه الله وكيانه المستقل تمام الاستقلال عن الكون الذي خلقه بفعل ارادته الحرّ ، وهناك الاب كيرشبوم (P. Kirschbaum) يتحدث عن حفريات دياميس الفاتيكان الجديدة والاب ستيكلر (P. Stickler) عن صلة الكهنوت بالامبراطورية والاب ميكيلس (P. Michiels) والاب فويتس (P. Wuyts) عن الشخصية الادبية، ويتكلم الاب نيف (P. Nève) على الحياة التأملية في بلدان الارسالية والاب زاميزا (P. Zameza) على تعاليم المرسل الروحي .

وهذه البحوث والكثير غيرها وما تخللها من مناقشات مشوقة مفيدة كان لا بدّ لها من ان تستغرق الوقت حتى يوم السبت الواقع في ١٧ من الشهر وهو اليوم الذي جاء فيه الحبر الاعظم من قصره كاستيل غاندلفو لمقابلة المندوبين الى المؤتمر والمشتركين فيه بالفاتيكان . ولقد كان عددنا زهاء اربعة آلاف شخص خطب فينا الاب الاقدس بصدد العمل العلمي اللاهوتي وبصدد البحث عن الحقيقة واهمية اللاهوت الوضعي في يومنا الحالي .

وغداة يوم الاحد التالي احتفل الكردينال ميكارا (Micara) نائب قداسة البابا في مدينة رومة بقداس حبري ضمّ حول المذبح رجال المؤتمر ، وفي مساء اليوم نفسه وفي الردهة التي تحمل اسم البابا بيوس الثاني عشر القائمة عند طرف شارع (della Conciliazione) احتشد جمع كبير ، حول عشرة كرادلة و ٩٠ ألى ١٠٠ اسقفاً، زهاء خمسة آلاف شخص في وسط جو سحري فتان ليشهدوا نتائج المؤتمر .

وكان المندوبون البالغ عددهم حوالي ٢٠٠ مندوب وقد وفدوا من جامعات اوروبة واميركة وآسية وهم من الاكليريكيين والعلمانيين يشقون جمهور الحاضرين ببذلاتهم الرسمية ويصعدون المنصة ويلتفون حول الكردينال بيزاردو (Pizzardo) ورئيس الرهبانية اليسوعية العام ورئيس الجامعة الغريغورية .

وشكر الرئيس الحاضرين وبخاصة مندوبي مختلف الجامعات والحبر الاعظم الذي شرّف اليوبيل والمؤتمر برسالة شخصية وجهها اليه شخصياً وشكر الله الذي

وهنا النور والشجاعة للبحث عن الحقيقة والعمل على نشرها .

وحان بعد ذلك دور مندوبي اقدم الجامعات الثلاث وهي جامعة بولونيا (Bologne) وباريس (السوربون) وسلمنكا ، وهذه الاخيرة قد احتفلت بيوبيلها المئوي السابع منذ عهد قريب وفي شهر تشرين الاول نفسه .

وبعد ان اثنى هؤلاء الثلاثة على المجهود المستمر الذي تبذله الجامعة الغريغورية اوضحوا الرغبة الشديدة بان تستوحي الحكومات في عملها الفكرة المسيحية المستمدة من منابع الوحي .

ومن ثمّ كان دور الكردينال سيري (Siri) رئيس اساقفة جنوى الذي شدّد بعدد اهداف الجامعة الروحية منذ تأسيسها حتى الآن . وقد توالى على الخطابة بعده الكردينال بيزاردو مدير مجمع المعاهد الاكليريكية والدراسات وهو عميد الجامعة الاكبر واخذ يسدي نصائحه التي تقضي بها الظروف للحاضرين . وختم كلامه ببركة للحبر الاعظم .

ولقد كان المؤتمر وشيك الانتهاء . وفي غداة الاثنين التالي كانت نزهة خارج المدينة في جبل كاسينو (Monte Cassino) ضمّت عدداً كبيراً من الطلاب القدماء. ويوم الثلاثاء احتفل باقامة قداس لتذكار المتوفين منهم من اولئك التلاميذ الذين من تأسيس الجامعة الى اليوم تداولوا على استقاء العلوم من ينابيعها . فكان ذلك ملك الختام .

=

اجل في مقدورنا القول ان الافكار هي التي تسيّر العالم ولكن مهما يكن من امر فان هؤلاء الباحثين المتجردين الذين يقضون حياتهم في الدرس والتقرب من منطوق ابعد ما يكون عن النقصان للتعبير عن الحقيقة يريدون ان ينيروا اخوانهم في سيرهم الحثيث نحو الآخرة ، فهم هم الذين يدعمون مجتمعاً يتطوّر بسرعة ويسير نحو تدميم ذاته لولا انعاش الفكر للقلوب الكبيرة . فان التاريخ الحقيقي ليس التاريخ الذي تقرّره الحروب وشُهب الارماح ولكنه التاريخ الذي يتلد بنضج مستمر في عقول الذين يريدون ان يخدموا انسانية متألمة وافئدتهم باعطائها ما هو من شأنه ان يقويها بالحقيقة ، وخاصة اذا كانت هذه الحقيقة مستمدة من ينابيع الوحي في كنيسة لن تقوى قوات الشر وابواب الجحيم عليها .